# الناس والحق

تأليف

الدكتور يوسف القرضاوي

# الناس والحق

# الناس والحق

تأليف
الدكتور يوسف القرضاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. لقد جاءت رسل ربنا بالحق. والصلاة والسلام على رسوله الذي بعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وعلى آله وصحبه أهل الحق وحزبه، وعلى كل من اتبع الحق ودعا إليه إلى يوم الدين وبعد:

فهذه رسالة موضوعها «الحق» ومرجعها الأول هو القرآن الكريم وأسلوبها هو الحوار. فهي دراسة قرآنية عن مفهوم «الحق» وما تدل عليه هذه الكلمة في الكتاب العزيز، وكيف أودع الله الفطرة البشرية، حب الحق وطلبه، والتوجه إليه. وبيان الوسيلة الفذة المضمونة لمعرفة الحق والاهتداء إليه، وهي: الوحي الإلهي. وبيان الصلة بين الوحي الإلهي والعقل الإنساني، وماذا ترك الوحي للعقل من مجالات يعمل بها ويصول، وبيان المرجع السماوي الوحيد الباقي للبشر في الأرض ليعرفوا به الحق وينصروه وهو القرآن الذي ميزه الله بالوضوح، والتأثير والشمول، والخلود. وجعله تبياناً لكل شيء. وكيف ضل المسلمون وذلوا حينما غفلوا عنه.

ثم بيان موقف الناس من الحق، وأسباب إعراضهم عنه، وكراهيتهم له، وعداوتهم لأهله، عن جهل وغفلة أو عن عناد وهوى. ولماذا يطلب بعض الناس الحق ولا يهتدون إليه.

ثم ماذا على الإنسان من أعباء وواجبات نحو «الحق» إذا عرفه واهتدى إليه، وماذا ينتظره من جزاء في الدنيا والآخرة، إذا ثبت في معركة الصراع بين الحق والباطل، وأخيراً قيمة الحضارة السائدة اليوم وكم فيها من حق وباطل.

كل هذه القضايا الهامة تناولتها هذه الرسالة الصغيرة بأسلوب قريب كل القرب، بسيط غاية البساطة، بعيد عن التعقيد والتفلسف والتكلف. هو أسلوب الحوار بين شيخ مرب وتلميذ متعلم. وهو أسلوب استعمله علماؤنا من قديم كما نجد ذلك عند ابن القيم رحمه الله في محاورة بين سني وقدري، وبين قدري وجبري.

وكما رأينا ذلك حديثاً في محاورات المصلح والمقلد، للسيد رشيد رضا، ومحاورات الشيخ المرزوق وحيران بن الأضعف في «الجواب الإلهي عن العلم والفلسفة» للشيخ حسين الجسر، كما استعمله ولده الشيخ نديم الجسر في كتابه القيم «قصة الإيمان بين الدين والعلم والفلسفة».

بل إن القرآن الكريم نفسه استخدم أسلوب الحوار ليبرز به قضايا الوجود الكبرى: قضايا الألوهية والرسالة والبعث والجزاء كما نشاهد ذلك واضحاً في عرضه لقصص الرسل مع أقوامهم.

وقد أردت بهذه الدراسة القرآنية الموجزة أن أُعرّف الشباب المثقف بالحق، كما يهدي إليه كتابهم، وأن أحببه إليهم، حتى يؤمنوا به وينصروه ويكونوا من جنده وحزبه. وإني لأحمد الله عز وجل أن كُتب لهذه الرسالة القبول في قلوب المسلمين، فكتب إليَّ مسلمون في أفريقيا يطلبونها، وقام إخواننا الأتراك بترجمتها إلى اللغة التركية.

والله تعالى أسأل أن يجعلها خالصة لوجهه وأن ينفع بها كاتبها وقارئها وناشرها.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، آمين.

**يوسف القرضاوي**

# الناس والحق

**قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ:**

لطالما حدثتنا عن «الحق» وحببت إلينا العيش من أجله، كما هونت علينا الموت في سبيله، ولكنك علمتنا أن تحديد «مفاهيم» الكلمات وما تدل عليه أمر يجب أن يسبق كل حركة وكل عمل، حتى يتضح لنا **الهدف**، ولا يلتبس علينا الطريق، فما المفهوم المحدد لكلمة «**الحق**».

**قال الأستاذ المربي** - وقد أعجب بحديث تلميذه -:

أحسنت يا بني فيما طلبت. إن كلمة «**الحق**» قليلة الحروف، ولكنها كبيرة المعنى! وقد استعملها ذوو الاختصاصات المتنوعة استعمالات شتى:

«استعملها رجال الفلسفة دالة على إحدى القيم العليا الثلاث: الحق، والخير، والجمال.

واستعملها علماء الأخلاق فيما للإنسان على غيره، وهو ما يقابل الواجب، ولهذا قالوا: كل حق يقابله واجب.

واستعملها علماء القانون في معنى آخر، يشمل الحق العيني والحق الشخصي، حتى إن دراسة القانون بكل فروعه لتسمى دراسة «**الحقوق**».

واستعمل القرآن الكريم كلمة «**الحق**» فيما يقابل الباطل والضلال: قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢﴾ [يونس].

**قال الطالب:**

أحسب أن المفهوم الأخير للحق هو الذي يعنينا أن نعرفه هنا، وهو الذي يحرص كل امرى على الانتساب إليه، ولو لم يكن من أهله ويبرأ من مقابله وهو الباطل ولو كان في الواقع من أنصاره وحزبه.

**قال الأستاذ:**

وهذا ما يزيد الأمر تعقيداً، فإن سائر أهل الباطل يزعمون أنهم على الحق، بعضهم عن جهل وغفلة، وبعضهم عن عناد ولؤم ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** (١١) ﴾ [البقرة]. ولكني أضع في يديك مصباحاً يضيء لك معنى الحق.

الحق يا بني - كما تهدي إليه الفطرة السليمة - هو الأمر الثابت الباقي، والباطل هو الزائل المتغير. فما كان من شأنه الثبات والبقاء فهو «حق»، وما كان من صفته التلاشي والفناء فهو «باطل».

وإذا نظرنا إلى الواقع لم نر في الموجودات شيئاً يتصف بالثبات والبقاء لذاته غير الخالق سبحانه. وكل من عداه وما عداه، فليس وجوده لذاته، ولا بقاؤه بنفسه، وإنما هو موجود لغيره، وكائن بعد أن لم يكن، وكائن إلى أجل، ثم تطوى صفحته!!

فالحقيقة الناصعة التي تشهد بها الفطرة والعقول، ويشهد لها كل سطر، بل كل حرف في كتاب الوجود: **إن الله هو الحق، وما دونه هو الباطل**. وهذا ما أعلن عنه كتاب الله الحق في غير سورة من سوره، فقال: ﴿ **فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ** (٣٢) ﴾ [يونس]، ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (٦) ﴾ [الحج]. ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** (٦٢) ﴾ [الحج].

ومن هنا قال الرسول ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: ألا كل

شيء ما خلا الله باطل»[1].

ومن ضل عن هذه الحقيقة اليوم، فسوف يعرفها غداً، يوم ينكشف الغطاء عن بصره، فيرى الحقائق عارية مجردة من الأقنعة الزائفة، والألبسة المموهة، ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور]. ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [القصص].

إن حيثيات هذا الحكم تتلخص في هذه الآية الكريمة: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص].

**قال الطالب لأستاذه:**

لقد أنرت لي السبيل بهذا المصباح، وإن صوت الفطرة في أعماقي ليناديني بأن الله هو الحق المبين.

ولكني أسألك سؤالاً:

**قال الأستاذ:**

سل ما بدا لك، فالعلم خزائن مفاتيحها السؤال.

**قال الفتى:**

ألسنا نَصِف أقوالاً وأعمالاً، وأفكاراً ومذاهب وأشياء بأنها حق، وبأن غيرها باطل؟ فمن أين يجيء البطلان لهذه، والحقيّة لتلك؟

**قال الشيخ:**

إن الأمر يا بني يكتسب صفة الحق بقدر اتصاله بالحق المطلق - الله - وانتسابه إليه، ورضاه عنه، ويكتسب الأمر صفة الباطل بقدر بُعدِهِ عن الله

---

(١) وتمام البيت في ديوانه ص ٢٥٦: «وكل نعيم لا محالة زائل».

وانقطاعه عنه، وإقفاره من رضاه.

فما كان أصله من قبل الله فهو حق، وما كان من غير الله فهو باطل.

فإذا عرفت أن الله هو الحق، فاعلم أن قوله حق، وفعله حق، فهو تعالى لا يقول باطلاً، ولا يفعل باطلاً.

ولهذا كان من دعاء أُولي الألباب ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ (١٩١) ﴾ [آل عمران].

ومن هنا رد القرآن في إنكار وتعجب على أولئك الذين زعموا أن هذا الخلق ليس له حكمة، وهذه الحياة ليس وراءها غاية، وبأن هذا عبث يتنزه عنه فعل الله الحكيم، وباطل يتعالى عنه الملك الحق ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ (١١٦) ﴾ [المؤمنون]، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾ [الدخان]، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ (٢٧) ﴾ [ص].

فما أخبر به تعالى في كتبه على ألسنه رسله فهو حق و ما شرعه تعالى في كتبه وعلى ألسنه رسله فهو حق ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا (١١٥) ﴾ [الأنعام].

فكل ما أخبر الله به عن عوالم الغيب ونهاية الحياة وحقائق الآخرة فهو حق، يجب التصديق به، والتسليم بصحته ووقوعه لا محالة.

ومن هنا كان وعد الله حقاً، وكان الموت حقاً، وقيام الساعة حقاً، والبعث حقاً، والحساب حقاً، والجنة حقاً، والنار حقاً. فالقرآن يقول: ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ﴾ [الكهف]، ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ (٣٣) ﴾ [لقمان]، ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) ﴾ [ق]، ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) ﴾ [يونس]، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى]، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحقاف]، ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية].

هذا وكل ما شرعه الله لعباده من أحكام تنظم علاقتهم بالله، أو علاقتهم بالكون والحياة، أو علاقتهم بعضهم ببعض أفراداً وأسراً، وجماعات، فهو حق، يجب الاحتكام إليه، والإذعان له، والتسليم بعدالته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء]، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة].

**قال الطالب:**

إذا كان الحق من الوضوح والبساطة بالقدر الذي ذكرت، فما بال الناس يختلفون اختلافاً كثيراً في تحديد الطريق إلى الحق، وتحديد المعيار الذي يَزِنُونَ به الحقَّ في الأمور من الباطل؟

**قال الأستاذ الشيخ:**

إن الله – يا بني – أودع الفطرة البشرية حب الحق وطلبه والتوجه إليه، كما أودع العقول بذور معرفته، ثم كمل ذلك كله بالكتب والرسالات السماوية، لنأخذ بيد العقل فلا ينخدع ولا يضل، ونحجب الأذى عن الفطرة فلا تنطمس ولا تنحرف، وبذلك يجتمع الناس على كلمة سواء، ويهتدون إلى المحجة البيضاء.

**اقرأ معي قول القرآن:**

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة].

وأظنك يا بني، تسلم معي أن من أراد أن يعرف أفكار مؤلف أو مبادىء مفكر أو تعاليم مصلح، فليطلبها مما ألَّفه من كتب وما أذاعه من أحاديث. . . ونحن نقول هنا أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٠﴾ [النحل]، من أراد أن يعرف الحق على وجهه الصحيح، مجرداً من شطط البشر، فليعرفه من كتب الله تعالى ورسله.

ولست أُنكر دور الفطرة البشرية السليمة ولا دور العقل البشري الراشد، في معرفة الحق والاهتداء إليه. كلا. . فإنهما نعمتان أنعم الله بهما على الإنسان لينتفع بهما لا ليعطِّلهما. وهل الفطرة السوية أو العقل السديد إلا ذلك الميزان المعنوي الذي نزن به الأفكار والمعاني، كما نزن الماديات والأجسام بالقبان؟ ذلك الميزان الذي وهبه الله لأفراد الإنسان كما وهب الكتاب المعصوم للجماعة الإنسانية ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ ۝١٧﴾ [الشورى]، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ ۝٢٥﴾ [الحديد].

هذا الميزان لابد منه بجوار الكتاب، لأن الإنسان به يعرف حقية الكتاب وصحة النبوة، وصدق الرسول. بل بهذا الميزان - ميزان الفطرة والعقل - يعرف ربه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

لا غنى عن هذا الميزان، ولكن لا قيمة له أيضاً بغير الاهتداء بنور الكتاب، ولا يستغنى عنه إلا إذا استغنى المخلوق عن الخالق، وهو ما لا يكون!

**قال الطالب:**

آمنت بما تقول يا أُستاذي، ولكن - ليطمئن قلبي - أوجه إليك سؤالاً آخر زيادة في الاستيضاح: مادمنا خلقاً نمشي على الأرض، فلماذا نطلب الحق من السماء!؟ ألا يعد ذلك حجراً علينا!؟ ولماذا لا نضع نحن مقاييس الحق لأنفسنا؟. .

**قال الأستاذ:**

ليس غريباً ولا بعيداً - أيها التلميذ النجيب - أن تطلب معرفة الحق من الله. بل هذا هو المنطقي والطبيعي.

«إذا كان الحق هو معرفة حقائق الأشياء، وأسرار الوجود وغايات الحياة، فالمنطقي أن نطلبها من خالق الأشياء ومدبر الوجود، وواهب الحياة».

«وإذا كان الحق هو دستور العدالة الذي يفصل بين الناس، ويوزع الحقوق والواجبات بالقسطاس، فيعطي كل فرد، أو كل أسرة، أو جماعة، ما له، ويطالبه بما عليه، فليس مصدر هذا الحق إلا رب الناس، الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى والذي يعلم ما يحتاج إليه عباده وما يصلحهم أو يفسدهم، وهم جميعاً لديه سواء، هو ربهم، وهم عباده، فلا يتحيز لفرد ولا لأسرة، ولا لطبقة ولا لأُمة ولا لجنس ولا لأهل إقليم من الأقاليم أو عصر من الأعصار».

«وإذا كان الحق هو قانون الفضيلة التي تحكم الغرائز، وتضبط السلوك، وتسمو بالنفس، وتهذب الفطرة، وترقى بأخلاق الفرد والمجتمع، فالحق في هذا يعرف من خالق النفس وفاطر الفطرة، العالم بما يزكيها وما يدسيها ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة]، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك].

إن أدرى الناس بإصلاح جهاز ما، هو صانعه ومنشئه، والله جل شأنه هو صانع الإنسان، فلماذ يُطلبُ صلاح الإنسان من عند غير الله ربِّ الإنسان؟! ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الجاثية].

وفضلاً عن علمه تعالى بمن خلق، فهو أرحم بعباده من آبائهم وأُمهاتهم، بل أبرُّ بهم من أنفسهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥].

**قال الفتى:**

ولكن ماذا ترك الكتاب للميزان؟ وبعبارة أُخرى ماذا ترك الوحي للعقل!؟

**قال الأستاذ الشيخ:**

لقد ترك الوحي للعقل أموراً كثيرة في مجالات متعددة:

أ- ترك للعقل في مجال العقيدة أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود:

**الحقيقة الأولى:** وجود الله ووحدانيته - فوجود الله - كما تهدي إليه الفطرة السليمة - يقتضيه كذلك النظر الصحيح، والعقل الصريح، ولا غرو إذا أقام القرآن الأدلة من الكون ومن النفس على وجود الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران].

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور].

ويتبع ذلك الأدلة العقلية التي ذكرها القرآن على وحدانية الله بقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء].

وفي موضع آخر يقول:

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون].

**الحقيقة الثانية:** ثبوت الوحي والنبوة والرسالة. فالعقل هو الذي يثبت إمكان ذلك ووقوعه بالفعل، وإن هذا الشخص المعين رسولٌ من عند الله. العقلُ هو الحكَمُ الأول والأخير في هذه القضية، ولا مدخل هنا للاستدلال بالنقل ونصوص الوحي؛ إذ كيف يُستدلُّ بما لم يثبت بعد؟ ولهذا قال علماء

الإسلام: إن العقل أساس النقل، ذلك أن العقل - بعد اقتناعه بوجوده تعالى وكماله سبحانه - يعلم أن من تمام حكمة الحكيم ورحمة الرحيم ألا يترك عباده سدى، وألا يدعهم في بحر لجِّي من الجهالة والعمى والغي، وهو قادر على أن يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور عن طريق تبليغه عنه.

والعقل بعد أن يعلم ذلك - لا يُسلِّمُ لكل من ادعى أنه رسولٌ من الله، بل يطالبه بما يثبت صحة دعواه وأنه لا يمثل نفسه، وإنما يمثل إرادة الله الذي أرسله، يطالبه بالآية المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى.

والعقل هو الذي يميز بين الآيات المعجزة الحقيقية التي لا تظهر إلا على أيدي رسل الله حقاً وبين مظاهر الخفة والشعوذة التي تظهر على أيدي السحرة والدجالين.

والعقل هو الذي يعرف وجه دلالة المعجزة الخارقة على صدق من أظهرها الله على يديه، وأنها تصديق من الله له في دعواه، فهي بمثابة قوله: «صدق عبدي فيما بَلَّغَ عني». والله تعالى لا يصدق الكاذب، لأن تصديق الكاذب كذب والكذب محال على الله تعالى. كل هذه مقدمات عقلية محضة ولولاها ما ثبت الوحي أصلاً، ولا قام الدين رأساً.

والعقل ينظر في سيرة كل شخص يدعي الرسالة ويتأمل في صفاته وأخلاقه، وأقواله وأعماله، ومدخله ومخرجه، ليعرف منها: هل هو أهل لاصطفاء الله أم ليس كذلك فيرفضه ويعرض عنه. ومن أجل ذلك احتكم القرآن في ثبات صدق رسالة محمد ﷺ إلى العقول المنكرة وحدها، فقال في صرامة ووضوح:

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ].

وقال يخاطب الرسول: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس].

ب- وترك للعقل في مجال التشريع أن يجول ويصول في فهم النصوص، فيُفرِّع على الأصول، ويقيس على الفروع، ويستنبط الأحكام، ويُكَيِّف الوقائع، ويرعى القواعد في جلب المصالح، ودرء المفاسد ورفع الحرج، وتحقيق اليسر وتقدير الضرورات بقدرها، واعتبار العرف، ورعاية ظروف الزمان والمكان.

ولا عجب بعد أن اختلفت المشارب، وتعددت المذاهب، وتنوعت الأقوال، وخلَّفَ لنا العقلُ الإسلامي في ضوء الوحي، ثروة فقهية طائلة، لها مكانها الرفيع في تراث الفقه العالمي.

جـ- وترك للعقل في ميدان الأخلاق أن يصدر حكمه وفتواه في كثير من الأعمال، التي يلتبس فيها الخير بالشر ويشتبه الحلال بالحرام، ولم يغفل شأنه بجانب الوحي بصفته مصدراً للإلزام الأدبي، ومقياس للحكم الخلقي.

ولا أجدُ مَنْ وضَّح هذه النقطة مثل أستاذنا العلامة الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز في رسالته القيمة «كلمات في مبادى علم الأخلاق» قال:

«يفخر الحكماءُ بأنهم اكتشفوا للإلزام الأدبي مصدراً آخر، غير الوحي السماوي ذلك هو النور العقلي، أو الإحساس الأخلاقي، الذي ينطوي عليه كل قلب إنساني. ألا فليعلموا أنهم لم يأتوا بجديد غريب عن الإسلام. فالقانون الإسلامي في رجوعه إلى العقل السليم والوجدان النبيل، يرجع إليهما لا باعتبار أنهما شهيدان له فحسب، يؤيدان حكمه ويشفعان له عند المخاطبين كما بينا آنفاً، بل إنه يقلدهما مقاليد الحكم، ويُخَوِّلهما حق الأمر والنهي في أطوار ثلاثة: قبل ورود الشرع، وفي أثناء نزول الشرع، وبعد انتهائه وتمامه.

أما قبل الشرع فإن القرآن يقرر في أصرح عبارة أن النفوس كلها قد منحت بفطرتها قوة التمييز بين الخير والشر، والعدل والظلم، والتقوى والفجور: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس].

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾ [القيامة]. ثم لا يكتفي بأن يجعل هذه البصيرة قوة كاشفة معرِّفة؛ بل يجعلها آمرة ناهية، وينعى على من يخالفها بأنه من أهل الضلال والطغيان ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الطور]. هذه القضية المنفصلة لا تدع مجالاً للشك في وجوب الخضوع لأوامر الأحلام والعقول، متى اتضح أمامها طريق الحق والخير. وكذلك يقول صاحب الرسالة الباهرة صلوات الله عليه: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه».

إن الإسلام يقرر للعقل سلطاناً أدبياً بالمعنى الإنساني الذي شرحناه آنفاً. وهو المعنى الذي زعم علماء أوروبا أنهم اكتشفوه في المذاهب الفلسفية الخاصة. هذا السلطان الأدبي الذي يسميه الفلاسفة «سلطان الضمير» يعترف الإسلام به على استقلاله وكماله في الفترة التي تسبق قيام الشريعة ووصولها إلى من وجهت إليه.

يبقى البحث في نظرة الإسلام إلى هذا السلطان العقلي، في أثناء نزول الشريعة السماوية وبعد تمامها: هل متى نزلت الشريعة وبلغت أهلها أصبح أمرها ناسخاً لأحكام العقل وأوامره، كما يبطل التيمم بحضور الماء؟

كلا! إن النور لا ينسخ النور، ولكنه:

إما: أن يؤكده ويؤيده.

وإما: أن يغذيه ويرفده.

وإما: أن يكمله ويزيده.

وتفصيل ذلك أن شؤون الإنسان على ثلاثة أضرب:

منها: ما للعقل فيه مجال واضح، وحكم حاسم. وهو الأصول التي لا تتعارض فيها الأنظار ولا يختلف فيها اثنان؛ كحسن الصدق النافع، وقبح الكذب الضار، ونبل الإحسان في ردِّ الإساءة، ولؤم الإساءة في جزاء

الإحسان. . . فيجيءُ الشرع في هذه المواضع مقرراً لحكم الفطرة ومؤكداً.

ومنها: ما للعقل فيه نور ضئيل تغشاه الظلال، وتخالطه الأوهام وهو مواضع الشبهات العقلية كالخمر والربا والصدق الضار والكذب النافع واستبقاء الحياة المعذبة مع اليأس، والتضحية بها في سبيل الواجب مع القدرة على حفظها. . فهنا يجيءُ الشرع إمداداً لنور العقل، بترجيح جانب الحكمة والرشد فيه، وتصحيح أخطاء الوهم التي تخالطه وتغشاه.

ومنها: ما لا مدخل للعقول فيه بإطلاق كتفصيل أنواع العبادات وكيفياتها ومقاديرها. . فيكون ورود الوحي بها مكملاً لما فات العقلَ إدراكهُ، ماحياً للظلمة التي تركها وراء حدوده. وهكذا يكون للفطريين الذي لا يتبعون إلا شريعة العقل، نور واحد؛ ويكون لأتباع الشرائع السماوية نوران اثنان؛ كما قال الله سبحانه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴿٣٥﴾﴾ [النور].

ولا تحسبن أن نور الشريعة فيما لم يهتد إليه العقل بمفرده قد أصبح مستغنياً عن نور الفطرة جملة كلا، فإنه لايزال في أشد الحاجة إلى رفده وعضده، من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الشرع لا يزال يستند إليه عند مطالبته للمؤمنين بأداء واجباتهم الشرعية، لا باعتبار أنها أوامر إلهية فحسب، بل باعتبار أنها أصبحت أوامر أخلاقية بعد أن سبق تعهدهم بها تعهداً كلياً عاماً، بمقتضى عقد الإيمان الذي ينطوي على التزام السمع والطاعة. ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴿٧﴾﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد].

الوجه الثاني: أن أوامر الشريعة في معظم شأنها أوامر عامة كلية، يَكِلُ الشرعُ تفصيلَها وتحديدها إلى تقدير الوجدان الخلقي، الذي أودعه الله في كل نفس، وفي كل جماعة بشرية وكثيراً ما يصرّح القرآن بتفويض هذا الوجدان الشخصي أو الجماعي في تحديد مقادير الحقوق والواجبات وأساليبها: ﴿مِمَّن

﴿تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة]، ﴿رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة]، ﴿مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة].

الوجه الثالث: وهو أَعمُّ وأدق - أن الإسلام لا يطلب، ولا يرضى، أن تنفذ أوامره تنفيذاً آلياً، خضوعاً لصولة حكمه، بل لا بد قبل كل شيء أن تسري أوامره إلى أعماق الضمير، حتى يتشربها القلب، ثم تفيض عنه بعد أن تكون قد تحولت فيه إلى أوامر ذاتية انبعاثية.. ذلك أن أول خطوة في امتثال الواجب هي الإيمان بوجوبه وعدالته؛ والخطوة التي تليها هي أن يُحمل هذا الالتزام إلى النفس على كف الضمير، مشفوعاً بصوت منبعث من أعماقه، يناديها: «أيتها النفس! إن الله يأمركِ أن تفعلي، وأنا آمرك أن تُطيعي أمره؛ فإنه حق وعدل؛ وإنه لا خيرة لك في رده». فإن لم ينبعث من الأعماق هذا التبليغ، ولم يرتفع فيها هذا الصوت السماوي، كان العمل كله هباءً عند الله، وفي نظر قانون الأخلاق.

القلب (أو الضمير) إذاً هو بريد الشرع، الذي لا سبيل إلى الامتثال إلا عن طريقه. وكفى بهذا رفعاً لمكانته في غضون أحكام الشريعة.

وبعد، فإن الشريعة نفسها، بعد أن بينت الحلال الصريح، والحرام الصريح، تركت المنطقة التي تختلط فيها الأوصاف، ويشتبه فيها الحكم وفوضت لكل امرىء أن يستفتي فيها قلبه، ويتحرى فيها طمأنينة نفسه، أخذاً بالأحوط والأسلم. هكذا قضى الرسول الحكيم حيث يقول: «الحلالُ بَيِّنٌ، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه». ويقول: «استفتِ قلبكَ واستفت نفسك. البرُّ ما اطمأنت إليه النفسُ واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإنْ أفتاكَ الناسُ وأفتوك».

وأخيراً، فإن سلطان الضمير في نفس الإسلام لا يقف عند هذا الحد، ولا ينتهي بانتهاء هذه الحياة، بل إن له دوراً هاماً عند المحاسبة في دار الجزاء،

حيث يتقدم بين يدي فصل القضاء، ويصدر حكمه على صاحبه قبل أن يصدر عليه الحكم الأعلى. اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء].

ثم ترك الوحي للعقل بعد ذلك أن يجول في آفاق هذا الكون العريض ما شاء، صاعداً إلى الأفلاك وهابطاً إلى الأرض، ومتأملاً في النفس ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس]، ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات].

د- ترك له أن يكتشف من ظواهر هذا الكون ما استطاع، وأن يسخّر من قواه ما قدر عليه، فكل ما فيه سخّره الله لمنفعته ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

هـ- ترك له أن يبتكر ويخترع في وسائل الحياة وأمور الدنيا ما شاء، ما دام ملتزماً حدود الحق والعدل: «أنتم أعلمُ بشؤون دنياكم» ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [القصص].

و- ترك للعقل أن يستفيد من تجارب الآخرين، وينتفع بتراث السابقين، ومعارف اللاحقين، ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر]، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج]، ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف]، ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]، «الحِكمةُ ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقُّ بها».

**قال الطالب:**

ما أجمل وأروع ما قلتَ يا أستاذ، ولكن في نفسي شيء لم يزل يحيك فيها.. ألم يكرم الله الإنسان بالعقل؟ فلماذا لم يدع له المجال ليبحث عن الحق، ويهتدي إليه بنفسه؟

**قال الأستاذ:** - وكأنه غضب لهذا السؤال - لقد عدت إلى سؤالك القديم من جديد في صيغة أخرى.

بلى، إنه تعالى كرم الإنسان بالعقل، وفرض عليه أن ينظر ويتفكر في نفسه، وفي السموات والأرض ومن حوله. كيف لا، وكتابه الكريم يقول: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات].

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف]، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٨﴾﴾ [الروم]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ].

وهو الذي يختم كثيراً من آياته بمثل هذه الفواصل: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة]؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد]، ﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران]، ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران]، ﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه].

ولكن الحق سبحانه - بحكمته ورحمته - لم يدع عقل الإنسان وحده، فيما يصعب عليه أن يعرفه أو يحسم فيه برأي قاطع، وقول جامع.

إن الحق المطلق يا بني، لا يمكن معرفته عن طريق العقل وحده بمعزلٍ عن هداية الله، لأن العقل محدود بحدود زمانه وبيئته ومدى ذكائه، ومبلغ ثقافته.

كما أن عقول الناس تختلف باختلاف الأعصار والأمصار. وكم من أمر يُعَدُّ فضيلة لدى أمة هو من أرذل الرذائل لدى غيرها. وكم أمر يعده عصر من الأعصار حقاً صراحاً، يجيء عصر فيعتبره باطلاً صرفاً.

بل إن عقل الشخص الواحد ليختلف باختلاف أطوار عمره وتغير تجاربه، وتقلب الأحوال الطارئة عليه.

هناك بعد ذلك كله الأهواء والميول والنزعات الشخصية والأُسرية والإقليمية والقومية، التي تغلب على عقل الإنسان، واعياً حيناً، وغير واعٍ أحياناً، وتؤثر في حكمه على الأشياء والأشخاص والأعمال والقيم، شاء أم أبى.

فأين العقل الإنساني الذي يعرف منه الحق المجرد؟ عقل أي فرد أو أي جماعة؟ وفي أي بلد أو في أي عصر!؟ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون].

لنضرب مثلاً بفلاسفة الأخلاق، وما اتخذوا من مقياس لفلسفتهم الخلقية، كيف اختلفوا وتناقضوا؟

فمنهم من جعل مقياسه اللذة.

ومنهم من ذهب إلى المنفعة.

ومنهم من آمن بالواجب.

ومنهم من اتجه إلى القوة.

ومنهم من غالى في العقل.

ومنهم من تطرف في العاطفة.

ومنهم من آمن بالمادة وحدها.

ومنهم من كفر إلا بالروح.

ومنهم من قدس حرية الفرد.

ومنهم من قدس مصلحة المجتمع.

ومنهم من اهتم بالواقع.

ومنهم من جنح إلى المثالية.

فهل يمكن أن يخرج الإنسان من أمواج هذه الفلسفات المتعارضة، وعباب هذه المذاهب المتناقضة إلا بالشك والبلبلة والحيرة التي وصفها أحد المتفلسفين قديماً فقال وأحسن:

لقد طفتُ في تلك المعاهد كلها وسرَّحت طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائرٍ على ذقنه.. أو قارعاً سِنَّ نادمِ

إن العقل وحده إذاً لا يكفي في هداية الإنسان إلى الحق. فلا بد له من معين يأخذ بيده. ويخرجه من المتاهات، وهذه مهمة النبوة. ومن هنا كانت رسالات الله وكتبه تترى وتتلاحق لهداية البشر ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرعد]، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ [فاطر].

قد يكفي العقل في الاهتداء إلى الفروع والتطبيقات والوسائل. أما الأصول والمبادى والغايات، فلا بد فيها من كلمة السماء، تؤخذ من كتب السماء.

ولا تنس أن العقل هنا هو الذي يفهم وحي الله وكتبه. ويراقب تنفيذها، والاستقامة عليها أو الانحراف عنها، فدوره هنا لا ينكر.

ولكن المصدر الذي يؤخذ منه الحق بأمان واطمئنان لا بد أن يكون سماوياً إلهياً.

**قال الطالب:**

سلّمت بما تقول في الأمور النظرية والعقائدية، ولكن هناك أُمور عملية تتعلق بحياة البشر، وعلاقاتهم بعضهم ببعض، وفي استطاعتهم أن يعرفوا وجه

الحق والسداد فيها بمحاولاتهم وتجاربهم البشرية، فلماذا قيدهم الوحي الإلهي بنصوص تشريعية تفرض عليهم من فوقهم، ولا تنبعث من داخلهم؟

**قال الأستاذ:**

نعم، هناك أمور عملية قد يهتدي الإنسان فيها إلى الحق بالمحاولة والتجربة التي تكشف له أخطاءه، وتميط اللثام عن جوانب كانت خافية عليه، غشاها الجهل أو الغفلة أو الهوى. ولكن الإنسانية - حتى تصل إلى هذه النتيجة - تكون قد ضحت بأجيال لا حصر لها، تهلك وتذهب ضحية لمن يأتي بعدها، ولا تكسب هي شيئاً. أفليس الأوفق بحكمة العليم الحكيم، ورحمة الرحمن الرحيم، الذي أحاط بكل شيء علماً، والذي يعلم المفسد من المصلح، أن يريح عباده من عناء التجربة في أهم أُمور حياتهم، بما ينظم علاقاتهم، ويحفظ عليهم دينهم ودنياهم، ويصون دماءهم وأعراضهم وأموالهم وعقولهم وأخلاقهم؟

ألسنا نرى أن من واجب الأب الذي صقلته التجربةُ، وعلمته الحياة، وأدَّبه الليل والنهار، أن يعطي أبناءه خلاصة تجربته، وثمرة معرفته بالحياة والأحياء؟

أَوَليس الله - جل شأنه - أَبرَّ بالناس من آبائهم، بل من أنفسهم؟ فلماذا ننكر عليه سبحانه أن يعلم عباده مالم يكونوا يعلمونه إلا بعد تجارب مريرة ينفقون فيها الغالي والكثير في قرون يعلم الله كم يكون عددها وماذا تكون نتيجتها؟ على أن الإنسان قد يهتدي بالتجربة إلى معرفة الحق في أمر ما. كأن يعرف بالتجربة مثلاً أضرار التعامل بالربا، أو شُرب الخمر، أو لعب الميسر، أو إطلاق العنان للغريزة الجنسية، أو حرمان الإناث من الميراث، أو اتخاذ الأدعياء أبناء (نظام التبني) أو تفضيل صاحب البشرة البيضاء على صاحب البشرة السوداء أو السمراء (التمييز العنصري).. إلخ، ومع ذلك قد لا يجد الإنسان الشجاعة الكافية التي تلزمه باتباع الحق في هذه القضايا بنصوص

تشريعية ملزمة، يتقيد المجتمع بها ولا يتعدى حدودها. وتقوم عقبات شتى دون ذلك، كأن تكون السلطة التشريعية في أيدي طبقات يهمها مثلاً بقاء الربا أو الخمر أو الميسر إلخ لأنها تكسب وتنتفع مباشرة من جراء ذلك، أو لأنها تتملق من ينتفعون بذلك، أو لأنها تسارع في أهواء الجماهير الغافلة وتسترضيها ولو بما يضرها ويدمرها. فهي مع هذه الجماهير كالتاجر مع عملائه، هَمُّه أن يجلب لهم كل ما يشتهون ما دام يدر عليه ربحاً. دون النظر إلى مضرته عليهم أو عدمها. لا كالطبيب الناصح الذي يمنع مريضه من أحب الأشياء إليه إذا كان فيه ما يؤذيه أو يؤخر عليه حلول العافية وهناك مثلان واضحان يدلان على ما نقول:

- أما أولهما فإن الولايات المتحدة الأمريكية قد اقتنع أهلُ الحل والعقد فيها في مرحلة من تاريخها الحديث بمساوىء الخمر وما تجلبه من كوارث وأضرار مادية وأدبية بالأمة، فقرروا تحريمها بقانون، وصدر القانون فعلاً، وأُنفقت عشرات الملايين من الدولارات في الدعاية لقانون التحريم، ولكن أهواء المدمنين، ومصالح المنتفعين بإباحة الخمور من زراع وصناع وتجار، غلبت على حكمة العقلاء الذين نادوا بالتحريم، وكان الإفلاس والفشل، وإلغاء قانون التحريم، لا اقتناعاً بفائدة أُم الخبائث، بل عجزاً واستخذاءً أمام الرغبات الجامحة والأهواء المضلة عن سواء السبيل.

- وأما المثل الثاني ففي روسيا، وذلك أن النظرية الشيوعية تحرم «الربا» والتعامل به، ومع هذا فشلت روسيا الشيوعية في احترام هذا المبدأ والتزامه. وأباحت لرعاياها في الداخل إيداع الأموال بالربا. كما أباحت - بالنسبة للعلاقات الخارجية - إقراض الآخرين بالربا.

إن الضعف الإنساني كثيراً ما يحول بين الإنسان وبين انتفاعه بتجاربه، لهذا كان في حاجة إلى سلطة عليا تلزمه بما يعجز هو عن إلزام نفسه به. ولن تكون هذه السلطة إلا سلطة رب الناس، ملك الناس، إله الناس. لهذا كان لابد من الرجوع إلى كلمة السماء، ورسالة السماء. ولا يترك العقل وحده في

هذا الميدان.

**قال الطالب:**

جزاك الله خيراً... لقد اطمأن قلبي... وازددت إيماناً مع إيماني...!

ولكني سمعتك تتحدث كثيراً عن كتب الله ورسالات السماء. فهل أفهم من ذلك أن كل هذه الرسالات سواء!؟ وإننا نستطيع أن نأخذ الحق من أسفار العهد القديم (التوراة وملحقاتها) وأسفار العهد الجديد (الأناجيل الأربعة) كما نأخذ من القرآن؟!

**قال الأستاذ:**

إن رسالات الله واحدة في أُصولها. فكلها يدعو إلى توحيد الله، وتزكية النفس، وإقامة العدل. كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء]، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد].

ومن هنا قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى].

وقد أثنى القرآن على كتب الله جميعاً، وجعل الإيمان بها جزءاً من إيمان المسلم ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة].

وقال تعالى في شأن التوراة: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة]، ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأنعام].

وقال في شأن الإنجيل: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المائدة].

غير أن هذه الكتب لما كانت مُنزَّلةً لفترة خاصة من الزمن. ولمجموعة خاصة من البشر، ولبيئة محدودة من الأرض، لم يضمن الله البقاء والحفظ لها، كما ضمن ذلك للقرآن: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر].

فلا عجب أن هبت عليها عواصف التحريف أو النسيان أو الضياع.. حتى أصبحنا نقرأ عن أنبياء الله ورسله في تلك الأسفار أنهم ارتكبوا الموبقات، وزنوا وشربوا الخمور، بل نقرأ عن الله تعالى شأنه فلا نجده إلا إلهاً يصارعه إنسان. فيصرع، إلهاً يُصلَبُ ابنه على مرأى منه ولا يصنع شيئاً. أو هو كما قال أحد الغربيين إله انهزم أمام خبث الإنسان!!!

بل إننا نبحث عن الإنجيل الذي أنزله الله على المسيح عيسى فلا نعثر عليه، وإنما نجد سِيراً كتبها بعده تلاميذه، أو تلاميذ تلاميذهِ، متضمنةً بعض أقواله، ومع هذا فهناك حلقات مفقودة في أسانيد وصولها إلى الناس بعد تأليفها. بحيث لا يُعرف أصلها العبري، ولا مَن ترجمها ولا كيف ترجمها!! ومع أن الأناجيل الأربعة المعترف بها الآن لدى المسيحيين انتخبت من بين عشرات الأناجيل الأخرى التي رفضت الكنيسة أن تعترف بها، والتي لا يزال في بعضها البشارة الصريحة بالرسول محمد كما في إنجيل «برنابا» - أقول مع ذلك كله فلم يزل في الأناجيل الرسمية الكثير من التعارض والاختلاف والخلل والاضطراب.

لا أجحد أن في هذه الكتب بقايا من الحق، بيد أنه مَشوبٌ بكثير من الباطل الذي يطمس معالمه، ويضيع النفع والاهتداء به.

**قال الفتى متعجباً:**

فما المرجع المضمون إذاً لمعرفة الحق والاهتداء به!؟

قال الأستاذ:

ليس يا بني في الوجود كله إلا مرجع سماوي واحد مضمون مائة في المائة، ذلك هو القرآن الكريم. إنه ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود].

إنه الكتاب الذي تحدى البشر أن يأتوا بمثله أو بعشر سور منه أو بسورة مثله، فغلبوا وانقطعوا وحقت عليهم كلمة الله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

إنه الكتاب الذي سلم من التحريف والتبديل والنسيان، ولم يزل منذ أنزله الله محفوظاً في الصدور متلواً بالألسنة، مكتوباً في المصاحف، يحفظه الألوف وعشرات الألوف من رجال المسلمين ونسائهم، بل من صبيانهم وفتياتهم.

لا يستطيع أحد أن يغير منه آية أو يعدل منه كلمة أو حرفاً ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت].

هذا الكتاب هو المصدر الفذ لمعرفة الحق، كما يريده الله، وكما يجب لخلقه أن يعرفوه ويتبعوه ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء]. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء]، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [الرعد].

إن الحق - في أجمل صوره وأعمق معانيه - يتجلى في هذا الكتاب الإلهي، الذي أودع الله فيه نبأ من قبلنا، وخبرَ ما بعدنا، وحكمَ ما بيننا. وضَمَّنه من جواهر الحكم، وجوامع الكلم، وروائع العبر، ودقائق المعاني، وأسرار التشريع، وحقائق الوجود، وآيات البيان، وبينات الهدى والفرقان، ما ينيرُ العقولَ، ويشفي الصدور، ويزكي الأنفس ويصلح الحياة، ويهدي الأفراد والجماعات إلى أقوم سبيل.

لقد أبصر الحق الناصع في هذا الكتاب، وشهد به كل ذي فطرة سليمة من الدنس، وكل ذي بصيرة برئت من العمى ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج].

شهد بحقية هذا الكتاب أُولوا العلم والإنصاف من أهل الكتاب، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأنعام]، ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ].

شهد بحقيته النصارى الذين حدث الله عنهم فقال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [المائدة].

بل شهد بحقّيته الجن الذين استمعوه: ﴿ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف].

بل شهد بحقّيته المشركون أنفسهم - رغم عنادهم وكفرهم به وبمن أُنزل عليه. فقالوا: إنَّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإنه يعلو ولا يعلى عليه.

هذا القرآن حق، لأنه كلام الله الحق؛ وهو حق لأنه خالد باق لا يزول ولا يتبدل.

وهو حق؛ لأنه يهدي إلى الحق المطلق، البريءُ من قصور العقل الإنساني، وانحراف الهوى البشري.

هو يهدي إلى الحق؛ لأنه يهدي إلى الله وإلى صراط مستقيم.

وهو يهدي إلى الحق؛ لأنه يهدي إلى الحقائق الثابتة التي تحل ألغاز

الوجود، وتبين للإنسان مبدأه ومصيره؛ وهو يهدي إلى الحق، لأنه يهدي إلى أفضل الغايات وأقوم السبل.

وهو يهدي إلى الحق؛ لأنه يهدي إلى القيم الخالدة والفضائل الأصيلة التي تستقر بها الحياة وتنتظم بها المعاملة ويستقيم بها ميزان الخلق والسلوك.

وهو يهدي إلى الحق؛ لأنه يهدي إلى العدل فيما للإنسان على غيره، ومما عليه لغيره، دون غلو ولا تقصير فلا يضغط على الفرد لحساب المجتمع، ولا يطغى على المجتمع لمصلحة الفرد، ولا يظلم الروح من أجل شهوات الجسد، ولا يعذب الجسم طلباً لأشواق الروح، فللبدن حق، وللعقل حق، وللروح حق، وللرجل حق، وللمرأة حق، وللمجتمع حق، ولله قبل ذلك كله حق. وصدق الله العظيم ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾﴾ [الإسراء].

هذا الكتاب هو كلمة الله الأخيرة للبشر، فليس بعده كتاب كما أن الرسول المنزل عليه ليس من بعده رسول. لهذا أودعه الله من الأسرار والمزايا ما يكفل له الخلود والدوام:

أ- أودعه الوضوح والتيسير، فهو كتاب مبين، ولهذا سماه الله نوراً وهدى، وهو ميسر للذكر، يسهل على من قرأه أن يعيه ويحفظه، ويسهل على من تلاه أو سمعه أن يفهمه، كل بقدر ما آتاه الله من فهم ومعرفة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

ب- كما أودعه الله قوة التأثير بما فيه من سرِّ الإعجاز الإلهي، فله سلطان على العقول والقلوب، بما في أحكامه من عدل، وما في أخباره من صدق، وما في معانيه ونظمه من روعة بالغة، وما في آياته من وعد ووعيد وتبشير وإنذار ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر].

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر].

جـ- ومَيَّزه الله بالشمول، فأودع فيه قواعد العدالة للفرد والأُسرة والمجتمع والإنسانية، وأُصول الهداية لسعادة الدنيا والآخرة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل].

د- وفوق ذلك فإن الله تولى حِفظه من الضياع والنسيان والتحريف فهيأ له من أسباب البقاء ما لم يهيئه لكتاب قبله، ليبقى حجة لله على عباده ما تعاقب الليل والنهار. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر].

**قال الطالب:**

ولكن كيف يمكن لكتاب واحد أن يشتمل على تبيان كل شيء وهو لا يزيد على مئات من الصفحات؟

**قال الشيخ:**

هذا سر الأُلوهية يا بنيّ، ومع هذا لم أقل أنه اشتمل على تبيان الفروع والجزئيات والتفصيلات، فهذه قد ترك بعضها للرسول يبينه بقوله وعمله وهديه، وبعضها الآخر ترك لاجتهاد المجتهدين في ضوء النصوص والقواعد العامة وما تقتضيه المصلحة المتغيرة بتغير الأماكن والأزمان والأحوال.

إنما قلت: إنه اشتمل على أُصول الهداية التي تحدد الهدف وتنير السبيل، في علاقة الإنسان بخالقه وعلاقته بالحياة وعلاقته بالآخرين. علاقته بالفرد وبالأسرة وبالمجتمع وبالحكومة وعلاقة المجتمعات بعضها ببعض.

وحسبك أن تقرأ هذه الآيات، فستجدها مصابيح هادية تنير ظلمات كثيرة، وتحل عقداً شتى:

في العلاقة بالله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة].

وفي العلاقة بالكون: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت]، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية]، ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك].

وفي العلاقة بالحياة وطيباتها: ﴿ ۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المائدة].

وفي علاقة الرجل بالمرأة: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النساء]. ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١].

وفي علاقة الأغنياء بالفقراء: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة]، ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المعارج]، ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ ﴿١١﴾ ﴾ [التوبة].

وفي علاقة الحاكم بالمحكومين: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء].

وفي علاقة الأمة بغيرها من الأمم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال].

**قال الطالب لشيخه:**

ما أبلغَ هذه الآيات، وما أروعها، وما أجمعها لأصول العدالة والفضيلة! ولكني أُحب أن أسأل:

إذا كان القرآن هو مصدر الحق الأوحد، فما بال أهله وأنا أعني المسلمين قد ضلوا وتفرقوا وأصبحوا في مؤخرة الأمم علماً وحضارة وتقدماً؟ وهل يعني اتباع الحق أن يتأخر أهله عن القافلة، ويلفهم الضعف والخمول بردائه الأسود؟

**قال الشيخ:**

مهلاً يا بني، فإنما حلَّ بالمسلمين ما حلّ، لانحرافهم عن الحق الذي جاء به هذا الكتاب، وقد تجلى هذا الانحراف في عدة مظاهر:

أولها: إنهم اتخذوا بعض هذا الكتاب وتركوا بعضه، وتلك من الرذائل التي أنكرها القرآن على بني إسرائيل حيث قال: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة]. ولهذا كان من وصية الله لرسوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة].

ثانيها: إنهم قلدوا دينهم رجالاً غير معصومين من الخطأ ولووا أعناق آيات

الكتاب لتوافق تفكيرهم ونسوا أن الكتاب أصل يرد إليه غيره، كما قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء].

ثالثها: إنهم ظنوا بركة هذا الكتاب في تزيين الجدران بآياته أوبتلاوته على الموتى أو نحو ذلك، وجهلوا أوغفلوا أن البركة إنما هي في اتباعه والعمل بتعاليمه كما قال تعالى:

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام].

إن تعاليم القرآن يجب أن تؤخذ جملة سواء منها ما يتعلق بالفرد أم بالمجتمع أم بالدولة. وقد روى المفسرون أن بعض اليهود أسلم وأراد أن يحتفظ بشيء من تعاليم اليهودية فنزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة]. ومعنى: ادخلوا في السلم كافة، أي: في الإسلام كله. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يقول الله تعالى آمراً عباده المؤمنين به، المُصدِّقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك.

هذا الكتاب كله أو هذا الدين بجميع شعائره وشرائعه «وصفةٌ» طبية متكاملة لا يجوز أخذ بعضها وإهمال بعضها، فإنها كلٌّ لا يتجزأ.

إن هذا الكتاب يمنحنا نظاماً مستقلاً للحياة، ذا صبغة خاصة ووجهة خاصة: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة]. ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النساء]. ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة].

فلا يجوز أن تُدخلَ في هذا الجهاز «قطعاً» أجنبية دخيلة لا توائم تركيبه، ولا تلائم بقية أجزائه. إن ضررها وخطرها قد لا يظهر لأول وهلة، ولكن سرعان ما يبدو خطرها على سلامة الجهاز كله.

**قال الطالب:**

بعد هذا البيان الجامع منك، أرجو أن تأذن لي في سؤال يهمني ويهم الكثيرين!

**قال الأستاذ:** سَلْ.

**قال الطالب:**

لقد ذكرت أن الله تعالى قد هيأ لنا سبل الهداية للحق، فما بال أكثر الناس قد أعرضوا عنه، وضلوا عن سبيله ضلالاً بعيداً، بلا عادوه وحاربوا أهله؟ وهل لذلك من سبب نعرفه؟

**قال الأستاذ:**

الواقع أن الإعراض عن الحق، بل إعلان الحرب عليه واقع فعلاً، بل هو واقع من أكثرية البشر، وهو أمر مؤسف حقاً.

وقد أكد القرآن هذه الحقيقة المؤلمة، التي لا تشرّف بني الإنسان أبداً، وهي: أن أكثر الناس يكرهون الحق، مما يفضي بهم إلى سخط الله وعذاب جهنم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الزخرف].

أما لماذا يكره الناس الحق، فذلك يرجع في نظري إلى سببين أساسيين:

**السبب الأول:**

هو جهل الناس بالحق. وقديماً قيل: «الناس أعداء ما جهلوا»، «ومن جهل شيئاً عاداه» وقال القرآن: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء]، ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يونس].

السبب الثاني:

فهو اتباع الهوى. فإن الهوى إله معبود، ومن جعل إلهه هواه فهيهات أن يُذعنَ للحق. ومن هنا قال تعالى: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص].

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص].

قال الفتى:

ولكن أعلام الحق لائحة وسبيله واضحة، فما الذي جعلهم يجهلونه ولا يعرفونه؟

قال الشيخ:

إنما يأتي الجهل بالحق من جملة أُمور:

١- منها الغفلة السادرة، التي تجعل بعض الناس يعيش في الدنيا حياً كميت، وموجوداً كمفقود. معطل السمع والبصر والفؤاد، وهي الأدوات التي وهبه الله إياها، ليستخدمها في معرفة الحق، فبالسمع يروي علم غيره، وبالبصر يقرأ ويلاحظ ويجرب، وبالفؤاد يرتب المقدمات ويستخلص النتائج، ويصحح ما قد يخطئ فيه السمع والبصر.

لقد امتنَّ الله على الإنسان بهذه الأدوات الثلاث ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

وحذر من إهمالها واتباع الإنسان ما ليس له به علم، والسعي وراء التقليد أو الظن أو الوهم ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء].

ولكن هؤلاء باستغراقهم في الغفلة خرّبوا هذه الأدوات التي هي مفاتيح

المعرفة للأولين والآخرين. فلا عجب أن يكون مصير هؤلاء كما ذكر الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف].

ويحكي الله عن أصحاب النار في الآخرة: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ [الملك].

لقد كان لهم سمع وكان لهم أبصار وكان لهم عقول، ولكن الغلوّ أدى بهم إلى الجحود المظلم، الذي جعلهم كأنهم ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة]، ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأحقاف].

٢- ومن أسباب الجهل بالحق: التقليد الأعمى، تقليد الآباء والأجداد تارة، وتقليد الرؤساء والكبراء طوراً آخر.

وكلا الأمرين مذموم، شَدَّدَ اللهُ النكيرَ عليه في كتابه، وسَخِرَ من كل مَنْ جعل آباءه حجة له في اتباع الجهل والضلال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة].

وللأسف الشديد إن هذا داء قديم. فهذا نبي الله هود يجادل قومه ليفهمهم، فماذا قالوا:

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف].
وحينما قال إبراهيم لقومه: ﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنبياء].

وقال فرعون وملؤه لموسى: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿٧٨﴾ ﴾ [يونس]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ

ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف].

وفي نهي القرآن عن تقليد الرؤساء وطاعة الكبراء يعرض لنا صوراً مؤثرة ومثيرة على الكبراء وأذنابهم يوم القيامة، وكيف يتبرأ كلا الفريقين من الآخر. وقد تكرر هذا المشهد في عدة سور من القرآن. ففي سورة البقرة: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة].

وفي سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف].

وفي سورة الأحزاب: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب].

وفي سورة سبأ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سبأ].

وفي سورة الصافات وسورة «ص» ذكر مثل هذا الحوار.

إن أشد ما يطمس العقل البشري هو التعصب الجامد المظلم، الذي يحبس صاحبه في القمقم القديم الذي كان عليه الآباء، أو الواقع الذي عليه الأكثرية أو الرؤساء.

إن هذا التعصب يُعْمي المرء ويصمّه، ويجعل عقله كأنما هو منحوتٌ من حجارةٍ صَمَّاء.

ألم تر كيف فعل التعصب بكفرةِ مكة الذين قالوا في عناد غريب: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ [الأنفال].

ولو عقلَ القومُ وأنصفوا لقالوا: اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له واجعلنا من جُندِه، وأنصاره، ولكن تعصبهم للباطل أعماهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة].

ثم انظر كيف حكى القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت].

**قال الطالب:**

لقد تبين لي الآن: لماذا يجهل الناس الحق، مع ما آتاهم الله من أدوات معرفته ووسائل الوصول إليه.

وبقي الآن أن أعرف السرّ في السبب الآخر، الذي يجعل الناس يعرضون عن الحق ويكرهونه، مع علمهم بأنه حق، ومع ما في اتباع الحق من خير لهم في الدنيا والآخرة.

وأرجو ألا يضيق أُستاذنا بكثرة الأسئلة، فأنت الذي غرست فينا حب المعرفة والاستقصاء، والموضوع جد خطير.

**قال الشيخ:**

كلا إني منشرح الصدر بكل ما توجه من أسئلة تفتح آفاق الموضوع، وتتيح لي الرد على شبهات قد تحيك في الصدور. وقديماً قال أحد العلماء وقد سئل: فيم لَذَّتُكَ؟ فقال: في حُجَّةٍ تتبخر اتضاحاً، وشُبهة تتضاءل افتضاحاً. أما السر في كراهية الناس للحق، فما أحسبه أمراً غامضاً على مثلك:

إن الحق يا بني مرّ المذاق، كثير التكاليف، لما يلزمه غالباً من مخالفة هوى النفس وعادات المجتمع، ونزعات الخاصة وشهوات العامة.

ولهذا نجد أكثر الناس يكرهون الحق، وإن لم يكن أكثرهم يجهلونه.

وفي هذا يذكر القرآن عن مشركي مكة منكراً ومعجباً من موقفهم من دعوة الرسول:

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ ﴿٧١﴾ ﴾ [المؤمنون].

لقد بين القرآن العلة الأولى في إعراضهم عن الدعوة، وما هي إلا أنه جاءهم بالحق الذي يكرهه أكثرهم. الحق الذي يسفه أحلامهم وهم عند أنفسهم أعقل العقلاء، ويعيب آلهتهم.

ثم هذا الحق يفرض عليهم المساواة والعدل وقد تعودوا التفرقة والبغي، ويحرم عليهم الشهوات الباغية وهم فيها غارقون. فلا عجب أن ينكروا هذا الحق لأول وهلة من عرضه عليهم قبل أن يمحِّصوا ويتفكروا. كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الأحقاف].

وهناك دوافع نفسية كثيرة تدفع بأصحابها إلى مخالفة الحق على علم. منهم من يخالفه ويكرهه أَنَفَةً واستكباراً أن يخضع لمن يَعدُّه أدنى منه منزلة أو أقل مالاً ونفراً كمشركي مكة الذي حدث القرآن عنهم في موقفهم من رسول الله ﷺ فقال: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]. ويريدون بالعظيم أن يكون ذا مال وجاه كالوليد بن المغيرة في مكة، وعروة بن مسعود الثقفي في الطائف.

ومثل هؤلاء، فرعونُ وملؤه الذين استكبروا أن يؤمنوا بموسى وهو من بني إسرائيل الذين كانوا في خدمتهم ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون].

وبعضهم يعاديه بغياً وحسداً لمن ظهر الحق على يديه، كموقف اليهود من

نبوة محمد، الذين عرفوه من أوصافه في كتبهم كما يعرفون أبناءهم، ثم أبوا أن يصدقوه ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۝١٠٩﴾ [البقرة].

وبعضهم يُعرِضُ عنه انشغالاً بحظوظ نفسه، وشهوات حسه، وترف عيشه، فلم يترك له اتباع الهوى فراغاً لاتباع الحق ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤﴾ [سبأ].

وكل ما ذكرت من هذه الدوافع والموانع التي تصدّ الناس عن الحق مع تبين معالمه ودلائله لهم، تدخل تحت هذا العنوان العريض «اتباع الهوى» سواء كان هوى النفس أو هوى الغير. بل نستطيع أن نجعل السبب الأول داخلاً أيضاً تحت هذا العنوان، إذ الجهل بالحق غالباً ما يكون منشؤه اتباع هوى النفس في الراحة والكسل عن طلب الحق والسعي إليه. أو اتباع هوى الآباء والرؤساء، ومسايرة الناس فيما هم عليه، دون بذل جهد لطلب الحق، أو استعمال العقل الذي وهبه الله للإنسان، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾ [الفرقان].

ومن هنا حذّر القرآن من - اتباع الهوى - وذم أصحابه أبلغ الذم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۝١٦﴾ [محمد].

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ۝١٧٦﴾ [الأعراف]، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ ۝٢٣﴾ [الجاثية].

**قال الطالب:**

لقد فهمت من حديثك الشيء الكثير. كنت أحسب أن هداية الناس إلى الحق أمر يسير قريب ولكني عرفت الآن أنه شيء عسير غير يسير، وإن المعوقات عنه كثيرة، منها ما ينشأ عن الجهل، ومنها ما ينشأ عن الهوى، ولكن ربما كان الأيسر على دعاة الحق وهداته أن يبدؤوا بالجاهلين به،

فيبينوه لهم ويحببوه إليهم.

**قال الأستاذ:**

هذا حسن، ولكن يجب أن تعلم يا بني أن الجاهلين صنفان:

«صنفٌ يدري من نفسه أنه ناقص العلم بالحق، ويشعر أنه في حاجة إلى من يهديه ويأخذ بيده وحال هذا الصنف يسمى «الجهل البسيط».

«والصنف الثاني يضع نفسه في صف العارفين، الذين عرفوا الحق عن بينة، فهو متمسك بما هو عليه من باطل، متوهماً أنه الحق الصريح، وجهلُ هذا الصنف يسمى «الجهل المركب». وهذا الصنف يعسر عليك أن تعرفه بالحق أو تزحزحه عن الباطل.

وقد قال حكيم عربي: الناس أربعة:

رجلٌ يدري ويدري أنه يدري فهذا عالم فاتبعوه.

ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فهذا نائم فأيقظوه.

ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا مسترشد فرشّدوه.

ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهذا ضال فارفضوه.

والغريب حقاً، أن أكثر الجاهلين من هذا الصنف الثاني، الذين قال الله عنهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف].

ومن هذا الصنف للأسف كثير ممن يُعدون في الدنيا مفكِّرين وباحثين وعلماء ومؤلفين، أو أُدباء وفنانين.

**قال الطالب:**

إذا كان أمثال هؤلاء بعيدين عن الحق، فما بال غيرهم؟ وما السبيل إذاً للاهتداء إلى الحق؟

**قال الأستاذ:**

إن أول خطوة في هذا السبيل أن يعرف الإنسان قدر نفسه ومنزلته في هذا الوجود. فلا يدع نفسه فريسة للغفلات والشهوات كبهيمة الأنعام، التي تقاد فتنقاد، لا تعرف غاية ولا تهتدي سبيلاً.

كما لا يغالي بنفسه، فيرفعها فوق مكانتها، ويظن نفسه مستغنياً عن الله، الذي خلقه فسواه فعدله، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه.

إن على الإنسان أن يدع الغفلة والشهوة والاستسلام لما هو فيه، فليس هو بهيمة.

وإن على الإنسان أن يدع الغرور والكبرياء والعجب بما عنده من علم أو رأي فليس هو إلهاً.

وإن عليه أن يعلم أنه - قبل كل شيء - مخلوق لله تعالى، غير أنه مخلوق كريم على الله، خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه، وسخر له هذا الكون، وجعله خليفة في الأرض.

فإذا عرف الإنسان قدر نفسه، دفعه ذلك إلى طلب الحق، والبحث عنه، ومحاولة الاهتداء إليه. وهذه نقطة البداية، بل سبيل الهداية.

قال الطالب:

فإننا نرى بعض الناس يطلبون الحق، ويحاولون الوصول إليه، ولكنهم لا يصلون إليه فما سر ذلك؟

قال الأستاذ:

سِرُّ ذلك يرجع إلى جملة أمور.

١- إما إنهم يعتمدون على الظن في مقام لا يُغني فيه إلا اليقينُ الجازم، وذلك كالعقائد والأصول الكلية. لا يجوز أن نعتمد على الظن، فضلاً عن الشك أو الوهم أو الافتراض الذي لا دليل عليه كالذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٣٦﴾﴾ [يونس]، ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء].

٢- وإما أنهم يتأثرون بأهواء النفس وعواطفها ونزواتها في أمور لا يجوز أن يحكمَ فيها إلا العقلُ والبرهان ومقررات العلم القاطعة. وإن كثيراً من الأدباء والكتاب والمفكرين لينتهون إلى آراء في النفس والحياة والكون هي في الواقع ترجمة لِعُقَدٍ في نفوسهم أو رغبات مكبوتة في صدورهم، وربما كانت هذه الآراء صوراً واضحة أو مهوشة لأفكار نضحها واقع أُسرتهم أو مجتمعهم عليهم، إيجاباً أو سلباً، فكانوا في الحقيقة منفعلين وهم يحسبون أنهم فاعلون؟ ومتأثرون، وهم يزعمون أنهم مؤثرون. ومن هنا قال القرآن: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام].

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم].

﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص].

إن اتباع الظن في مقام اليقين، واتباع الهوى الخفيّ في مقام الحجة والبرهان، طالما أضلا كثيراً من الناس الذين يحسبون أنهم مهتدون، وخاصة

إذا اجتمع الظن والهوى.

كما قال تعالى في عُبّاد اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى:

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النجم].

ومما يؤسف له أن أكثرية البشر قد سقطوا فريسة لهذا الضلال البعيد ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام].

٣- وإما إنهم يعتمدون على عقل الإنسان في مقام لا يحسم فيه إلا وحي الله، كمعرفةِ أصلِ الوجود ومبدأ الإنسان ونهايته، ورسالته في الحياة، وغاية هذا الكون وأسراره، وأصول العدالة والفضيلة، فهذه الأمور وما إليها يعجز العقل عن إدراكها والوصول فيها إلى قرار قاطع، لأنها أعلى من مستوى إدراكه، وأوسع من مجال بحثه، وأبعد عن اختصاصه ووسائله في المعرفة، وكل ما يصل إليه فيها أخبار تحتمل الصدق والكذب، ودعاوى تقبل التسليم والرفض، وأفكار وآراء تتسع للصواب والخطأ وآراء تناقضها آراء أُخر، مثلها أو أقوى منها أو أضعف، ولكنها على كل حال غير معصومة.

وهذا شأن أولئك الذين حاولوا أن يفسروا الوجود، أو يضعوا فلسفة شاملة للحياة والتاريخ، أو يخطوا للبشر مصيرهم كأنما هم خلق من خلقهم، هم به أعلم، وعليه أقدر وهيهات هيهات لما يدعون.

إن منهم من أنكر وجود الإله، ولكنهم نصبوا أنفسهم آلهة للبشر يتحكمون في تاريخهم ومصيرهم، يتحكمون فيهم نظرياً بما شاؤوا من التأويل والتفسير، ويتحكمون فيهم عملياً بما شاؤوا من التغيير والتحوير.

٤- وإما إنهم لم يتحرروا بَعدُ من العبودية الكفرية والتبعية العقلية لغيرهم، فلا يزالون يقدسون أقوالاً لذلك الفيلسوف الشهير، أوذلك الأديب الكبير،

وذلك المصلح الخطير. فهم في الواقع يستندون إلى عقول أنفسهم، وما تبين لهم من الحق. إنهم في حقيقة الأمر عبيد مقلدون لا أحرار باحثون.

ومن هذا الصنف كثير من المثقفين عندنا. فقد هالهم ضخامة وروعة ذلك الصنم الكبير المزوَّق الذي صنعته أوروبا أعني به الحضارة المادية الحسية الصناعية. فخروا لهذا الصنم ساجدين، وانقادوا لسدنته صاغرين، فهم حين يقرؤون عن حضارة الغرب أو فلاسفة الغرب، يقرؤون بعقلية المعجب المفتون. وحين يذهبون إلى ديار الغرب ينظرون إليها بعين العاشق المشدوه.

إن هؤلاء قد وضعوا أنفسهم في موقف لا يستطيعون معه استخلاص الحق من بين الأباطيل، ولا اطِّراح الباطل الذي لبس لبوسَ الحق.

إن موقف هؤلاء المساكين لا يبلغ أن يكون موقف التلاميذ فإننا نعرف كثيراً من التلاميذ يناقشون أساتذتهم بحرية وشجاعة، ويأخذون منهم ويدعون، فهل يمكننا أن نصف موقفهم إلا بأنه موقف العبيد؟ العبيد الذين ذابت شخصيتهم في إرادة سادتهم، فبهم يسمعون، وبهم يبصرون. وبهم يعقلون، إن كانوا يعقلون!!

إن بريق الحضارة المنتصرة يخطف أبصارهم، وطنين الأسماء اللامعة يدوي في أسماعهم، فلا يملكون بعد ذلك إلا أن يطأطئوا الرؤوس، ويسيروا في الركاب خاشعين.

وقد وقع في هذه الغلطة نفسها أفراد من عمالقة التفكير ممن يُعرفون بالفلاسفة في تاريخ الإسلام. فعندما ترجموا الفلسفة اليونانية راعهم هذا الإنتاج الفكري الجبار، وشَدَهتهم تلك الأسماء الرنانة التي أنتجت هذا التراث، فملك الإعجابُ بها عليهم أنفسهم، وأفضى ذلك بالبعض منهم إلى تقديس كل ما في هذه الفلسفة من آراء، وكان فيها كثير من الحق ملتبساً بكثير من الباطل، فلم يسمح لهم إعجابهم الشديد أن يقفوا موقف المستقل في تفكيره، المُعتدِّ بما عنده، **فينتخل** ويتخير، ويزن ويرجح، ويصوِّب

ويخطّىء ويأخذ ويترك، ولكنهم خلطوا ما يُقبل فيه الظن، بما لا يُقبل فيه إلا اليقين، وقاسوا ما هو من شأن العقل بما ليس من شأنه، وحسبوا أن الذي انتهى إلى مقررات يقينية في الرياضيات والطبيعيات لابد أن تكون مقرراته قاطعة في الإلهيات وما وراء الطبيعة.

وكانت النتيجة أن أوَّلو كثيراً من آيات القرآن، لتوافق فلسفة أرسطو في أن الإله، أو العلة الأولى، أو المحرك الأول كما سماه. أو توافق آراء الفلكيين اليونانيين الذين زعموا أن الأفلاك العلوية أجسام صلبة لا تقبل الحرق ولا الالتئام.

فيا ليت هؤلاء الفلاسفة يعلمون أن كثيراً من الأفكار التي قدسوها وأوَّلوا القرآن لأجلها قد أصبحت في عداد الخرافات وأساطير الأولين. لم يعد شكل الأرض والكون كما تصوروه، ولم تعد الأفلاك كما فهموا، وليس الكون مركباً من العناصر الأربعة: الماء، والتراب، والهواء، والنار، كما كانوا يظنون بل يوقنون.

إن تلميذ المدارس الابتدائية اليوم يعرف عن الكون والحياة معلومات صحيحة أكثر مما كان يعرف أفلاطون وأرسطو!!

**قال الطالب:**

فماذا يجب على الإنسان الذي يرغب في الاهتداء إلى الحق أن يفعله؟

**قال الأستاذ:**

ذلك بيِّنٌ مما ذكرت من العوارض والآفات. أعني، أن عليه أن يحذر من تلك المضلات التي تنحرف به عن سواء الصراط، وتميل به عن طريق الحق المستقيم.

عليه أن يطرح الظنون والأوهام من تفكيره، ويطارد الأهواء والنزعات من نفسه، وأن يتحرر من التبعية والعصبية لأفكار سابقة لم تثبت صحتها بيقين،

وأن يكون على قدر من التواضع يجنبه الغرور والعجب، فيعرف حدود ما هو في استطاعة فكره، وما هو فوق استطاعته.

وقبل ذلك كله عليه أن يتأكد من صدق نيته وإخلاصه في طلب الحق، وإيثاره على هوى نفسه وتقاليد قومه، وأن يتجرد مع ذلك من تأثير العقل الجمعي وإيحاءاته وفي ذلك يقول الله مخاطباً رسوله: ﴿ ۞قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ].

ومن دلائل الإخلاص في طلب الحق ألا يتحيز طالبه، فإن المخلص يقبل الحق من أي جهة أتى، وعلى يد أي إنسان ظهر. أما المتحيز فلا يقبل الحق إلا إذا جاء من حيث يهوى. وهذا ما عابه الله على اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ لأنه ليس من بني إسرائيل، مع أنهم كانوا ينتظرون بعثته، ويستفتحون به على الوثنيين في الجاهلية.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة].

ومن دلائل الإخلاص في طلب الحق أن يقبله الإنسان ولو كان عليه لا له، بل لو كانت نتيجته الابتلاء بالجوع والخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات.

هناك من طلب الحق، فلما عرف أنه قد يصيبه في دنياه، في ماله أو جاهه أعرض عنه. ومن أبرز الأمثلة لذلك «هرقل» امبراطور الروم الذي أرسل إليه الرسول ﷺ كتابه ليُسلم فَيَسلم، ويكسب الخير والهدى لنفسه ولقومه، وقد استدعى أبا سفيان ومن معه من رجال قريش وهم مشركون. فسألهم أسئلة

دقيقة عن محمد ونشأته وشخصيته ودعوته ومن معه ومن عليه، مما أكد له بكل وضوح - أنه الرسول المنتظر حقاً لهداية البشرية ولكنه لما وجد رجال الكهنوت ثائرين عليه، غلب حب ملكه على الحق الذي عرفه. وهكذا حدثنا القرآن عن بني إسرائيل الذين لا يقبلون نبوة نبي إلا إذا جاءهم بما تهوى أنفسهم قال تعالى ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة].

ويقول تعالى في شأن جماعة من المنافقين: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور].

**قال الطالب لأستاذه:**

وإذا عرفنا الحق وتبين لنا الرشد من الغي، فهل يكفينا هذا لنكون من أهله وحزبه كما قال سقراط قديماً: «الفضيلة المعرفة»؟.

**قال الأستاذ المربي:**

لا يا بني، إن المعرفة النظرية المجردة للحق لابد منها لتكون على بصيرة ولكنها لا تجدي ولا تجعلك من أهله إلا إذا رسخت جذورها في نفسك وكان لها الثمرات الآتية:

١- أن تذعن للحق وتتبعه، فإن كثيراً من الناس عرفوا الحق، ولم ينقادوا إليه اتباعاً لهوى أو كبر أو حسد أو تعصب أعمى، كما قال الله في أحبار اليهود ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة]. وقال الرسول في دعائه «اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه».

٢- أن تعتز بالحق وتنتصر له ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل].

٣- أن تدعو إليه، وتعمل على تكثير جنده، وتثبيتهم عليه، ومن هنا وصف الله المؤمنين الناجين من الخسران بقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر].

٤- أن يثبتَ عليه، ويتحمل الأذى في سبيله، ويصبر على البأساء والضراء من أجله، فإن طريق الحق مفروش بالأشواك، محفوف بالمكاره، مليء بالمعوقات وقطاع الطرق.

هذه سنة الله في الخلق، ولن تجد لسنه الله تبديلاً. ولهذا أوصى الله رسوله بالاعتصام بالصبر في آيات كثيرة من كتابه فقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم]، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ۝٣٥﴾ [الأحقاف].

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝١٠٩﴾ [يونس].

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عمران].

**قال الطالب:**

إنه والله لعبءٌ ثقيل!..

**قال الأستاذ:**

ولكن جزاءه عند الله عظيم في الدنيا والآخرة.

**قال الطالب:**

وأيُّ جزاءٍ يناله في الدنيا ما دام يعيش في معركة مستمرة مع الباطل، وما دام الباطل مدججاً بالسلاح، ومعه العدد والعدة، والمال والرجال.

**قال الأستاذ:**

إن الله يُداولُ الأيامَ بين الناس، تربيةً لأهل الحق، وتمييزاً لهم من غيرهم، ليبتلي الله ما في صدورهم وليمحِّصَ ما في قلوبهم. كما قال تعالى يخاطب المسلمين بعد غزوة أحد، وقد استشهد فيها سبعون منهم: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران].

ولكن العاقبة دائماً لأهل الحق، ما داموا مُتَّبعين لسنة الله في الأسباب والمسببات، إن الله تعالى أقام الحياتين: الأولى، والآخرة، على الحق.

ففي هذه الحياة كتب على نفسه أن يُحِقَّ الحق، ويُبطِلَ الباطل.

ومن تأمل التاريخ وجده قصة صراع بين الحق والباطل، ينتهي بانتصار الحق وإن طال الأمد.

وهذه قصة موسى وفرعون مثل واضح لذلك ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس].

لقد ألقى السحرة حبالهم وعصيهم وأجمعوا كيدهم وزيَّنوا باطلهم حتى سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، وحتى أوجس في نفسه خيفة موسى، ولكن ماذا كانت النتيجة؟! النتيجة ما قصه علينا القرآن:

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف].

وهل أنزل الله ملائكته يوم بدر إلا لنصرة الحق وهزيمة الباطل؟! استمع إلى هذه الآيات: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنفال].

على أن صاحب الحق يكفيه جاهاً في الدنيا ما يشعر به من عزة وسكينة باتباع الحق ونصرته.

قال عبد الله بن الزبير: (والله ما عَزَّ ذو باطل، ولو طلع من جيبه القمر، وما ذل ذو حق ولو اجتمع عليه أهل الأرض).

هذا في الدنيا.

وفي الآخرة يقضي الله تعالى بين عباده بالحق، فيجزي كل نفس بما كسبت، ويكافئها بما عملت ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزمر].

وهناك يعترف المؤمنون والمبطلون أنهم إنما يجزون بالحق وحده فيقول المؤمنون أهل الحق حين يدخلون الجنة ويتبوؤون منازلها: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف].

وأما المشركون الذين اتخذوا آلهة زعموها تشفع لهم يوم القيامة فقد تبين

لهم ضلالهم، فما لهم من حميم ولا شفيع يطاع، وإنما هنا «الله يقضي بالحق»، وفي هذا يقول القرآن: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٧٤ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٧٥ ﴾ [القصص].

هنالك يلمس الجميع الثمرة الحلوة لاتباع الحق، والثمرة المرة لاتباع الباطل.

هنالك يوقنون أن الحق ينفع من اتبعه في الدنيا وفي الآخرة، ينفع الفرد وينفع المجتمع معاً، أما الباطل فإنه ضار بأهله في الآخرة والأولى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣ ﴾ [محمد].

**قال الطالب لشيخه:**

لقد ذكرت لي أن الحق من مقوماته الثبات والبقاء وأن الباطل من شأنه التلاشي والفناء، ولكن ألسنا نرى في الواقع باطلاً يبقى ويسود ويستمر حيناً من الدهر، ونرى حقاً يضعف ويُغلب وينكمش ويختفي؟!

**قال الشيخ:**

إن الباطل قد يظهر حيناً في غفلة الحق، ولكنه لا يدوم طويلاً، ولا يستمر على ظهوره كثيراً، فلابد أن ينكشف مافيه من زيف. وأن يزحف عليه الحق فيدمغه ويمحوه، كما يمحو الصبح سواد الظلام. وفي هذا يقول القرآن: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٤٨ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩ ﴾ [سبأ].

إن الباطل كالرغوة المنتفخة وكالزبد الرابي على سطح الماء يعلو قليلاً ثم يتلاشى ويختفي ولا يبقى إلا الماء الخالص والنبع الأصلي. وهذا مثل ضربه الله في القرآن فقال: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد].

هذه السنة الإلهية في علية الحق على الباطل قد أكدها القرآن الكريم في غير موضوع من سوره. وتأمل معي مثل هذه الآيات: ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشورى]. ويصور المعركة بين الحق والباطل، فتحس بأن الحق قذيفة إلهية تَنقضُّ على الباطل فتسحقه ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء].

وفي فتح مكة أمسك النبي ﷺ برمح في يده وأهوى به على الأصنام التي طالما عبدت من دون الله وهو يتلو قول الله: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء].

**قال الطالب:**

وما رأيك في حضارة الغرب التي تسود العالم اليوم: أَحقٌّ هي أم باطل؟

**قال الشيخ:**

إن ما فيها من الباطل أضعاف ما فيها من الحق، ومن باطلها هذا الغلو الذي جاوز الحد الوسط في كل أمر:

غُلُوُّها في تمتيعِ الجسد علىحساب الروح، وفي تقديس العقل على حساب الوحي، وفي الحرص على متاع الدنيا على حساب الآخرة، وفي تدليل المرأة على حساب الرجل، وفي إطلاق الحرية للفرد على حساب المجتمع، وفي إيثار المنفعة على حساب الأخلاق، وفي نزعتها القومية على حساب الإنسانية.

وقبل ذلك كله في نسيانها لله تعالى، مما أنساها حقيقة نفسها، وصدق الله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحشر].

**قال الطالب لأستاذه:**

ولكن الإنسان في الغرب حطم الذرة وغزا الفضاء، وسخر الطبيعة، واكتشف كثيراً من المجهول فهلاَّ نرى هذا التقدم العلمي قربةً إلى الحق؟

**قال الأستاذ:**

إن الإنسان الغربي يا بني اكتشف أشياء كثيرة ولكنه لم يكتشف سر وجوده، وسخر الطبيعة ولكنه لم يسخر هواه، وحطم الذرة ولكنه لم يحطم أوثانه الفكرية والروحية. وما أروع ما قاله أحد فلاسفة الهند لأحد مفكري الغرب، قال: لقد أحسنتم أن تُحلّقوا في الهواء كالطير، وأن تغوصوا في البحار كالسمك، ولكنكم لم تحسنوا أن تمشوا على الأرض كالإنسان !!

**قال الفتى متعجباً:**

وإذا كان الغرب هكذا إغراقاً في الباطل، فما باله يمسك بعجلة القيادة؟ ويتحكم في زمام القافلة البشرية، ويوجه ركب الحضارة أنى يشاء، ويوقد الحرب ويطفئها، والعالم رهنُ إشارته، وطوع هواه؛ أليس أَوْلى بالباطل أن يندحر ويولي الأدبار؟ أليس سمي باطلاً لبطلانه وذهابه وتلاشيه فلماذا بقي الغرب هذه القرون سيداً مسيطراً؟ !

**قال الأستاذ الشيخ:**

قلت لك يا بني: إن الباطل قد يقوم في غفلة الحق، على أن الباطل إذا ظهر حيناً فإنما ذلك لشيء من الحق اختلسه فَضمَّهُ في حناياه.

ألا ترى اللصوص يبقى أمرهم جميعاً ما دام معهم بصيص من الحق يتعاملون به فيما بينهم فقط، كاحترام القسم فيما بينهم، وكتمان ما تواصوا بكتمانه واقتسام ما سرقوه بالعدل ومعاونة من سقط منهم... وهكذا. حتى إذا تسرب هذا البصيص من بينهم فلا بد أن ينكشف أمرهم وينفرط عقدهم، وتقبض عليهم يد العدالة، فيؤخذ بنواصيهم وأقدامهم، ويساقون إلى عذاب

الهون جزاء بما كانوا يكسبون.

إن لدى الغربيين بقايا من حق إلى جانب ركام هائل من الباطل، لابد أن يدمر عليهم حضارتهم وينقل الزمام إلى غيرهم.

وقد قيل قديماً: دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة.

**قال الفتى:**

إننا نقرأ بين الحين والحين أقوالاً لمفكرين من الغرب نفسه ينعون على حضارتهم ماديتها المسرفة وحيوانيتها الهابطة، فهل يمكن أن يكون هؤلاء رسل هداية لقومهم؟ وهل نأمل في يوم يؤوب فيه هؤلاء الغافلون إلى فطرتهم ورشدهم؟ وإلا فما السبيل إلى هداية الإنسانية، وإنقاذها مما تردت فيه من الباطل والغي؟

**قال الشيخ:**

صحيح يا بني أن بعض الغربيين قد أفاقوا من سباتهم فرأوا حضارتهم قد مَسخت فِطرةَ البشر، وحرمته سكينة النفس، ودمرت عليه خصائص الإنسانية ومن هؤلاء شبنجلر في كتابه «تدهور الغرب»، وبرناردشو في مسرحياته، وتوينبي في كتب التاريخ، وبرغسون، وكولن ولسون في «سقوط الحضارة» ولننجستون في «التربية لعالم حائر»، وألكسيس كاريل في «الإنسان ذلك المجهول» وغيرهم وغيرهم.. بيد أن هؤلاء جميعاً شَخَّصوا كثيراً من الداء، ولكنهم لم يهتدوا بعد إلى حقيقة الدواء.

**قال الطالب:**

فما الدواء إذن وكيف يهتدون إليه؟

**قال الأستاذ:**

الدواء عندنا نحن وليس عند غيرنا، الدواء في حضارتنا الربانية الإنسانية

العالمية، حضارة الحق والخير والتوازن والعدل، التي تضع كل شيء في موضعه وتعطي كل ذي حق حقه، ولا يطغى جانب من الحياة فيها على جانب، فهي تشيد المسجد إلى جانب المصنع، وتُعلي المئذنة كما تعلي المدخنة، تجمع بين الدين والعلم، وتوفق بين العقل والقلب، وتمزج بين الروح والمادة وتصل بين الأمس واليوم والغد، وتربط بين المثال والواقع، وتقسط بين الحق والواجب وتعدل بين الرجل والمرأة، وتوازن بين الفرد والمجتمع. وتصلح بين الغني والفقير وتؤلف بين الشعب والحاكم، وتؤاخي بين الإنسان والإنسان.

إذا اهتدت الإنسانية إلى هذه الحضارة، فقد اهتدت إلى سر السعادة وروحها وإلا كانت جهودها هباء، ومحاولاتها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

لن تهتدي الإنسانية إلى الحق وهي تطلبه من فلسفات وضعية متناقضة، ومذاهب أرضية هابطة تعالج مشكلة بخلق أُخرى، وتتداوى من داء بداء جديد.

ولن تهتدي إلى الحق وهي تسلم أزمتها الفكرية والروحية لأُناس لا يرجون الله والدار الآخرة، همهم استغلال الغرائز وإيقاظ الشهوات.

لن تهتدي الإنسانية إلى الحق، إلا إذا طلبته من مصدره الأوحد وهو كتاب الله الخالد - القرآن - وإلا إذا تسلم قيادتها رجال يقدسون الحق ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً.

ومن يكون هؤلاء إلا المسلمون، يوم يعودون مسلمين حقاً.

المسلم هو الذي يقدس الحق، ويعيش له ويموت في سبيله.

فالحق في اعتقاد المسلم اسم من أسماء الله، ووصف من أوصاف كتابه، ونعت من نعوت رسوله، وقيمة عليا من قيم دينه.

والمسلم باعتباره فرداً، مطالبٌ بأن يعرف الحق ويؤمن به ويدعو إليه ويصبر على ما يلقاه في سبيله.

والمسلمون باعتبارهم أمة مطالبون أن يقيموا الحق في الأرض ويتواصوا به ويهدوا إليه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر].

غير أن المسلمين - واأسفاه - غافلون عن الحق الذي شرفهم الله به وحملهم أمانة تبليغه ونصرته، ونشر نوره في العالمين. فكيف يهدي الناسَ إلى الحق مَنْ عَمِيَ عنه أو تعامى، ومن نسيه أو تناساه، وفاقد الشيء لا يعطيه؟!

**قال الطالب:**

هل أفهم من كلامك أنك يائس من غلبة الحق على الباطل.

**قال الشيخ:**

لا! لا ينبغي للمؤمن أن يتسرب إلى فؤاده اليأس، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف].

ويقيني أن الحق لابد أن تقوم له دولة، وأن ترتفع رايته في الأرض، ولابد أن ينهزم الباطل ويلوذ بالفرار.

وقد بدت بشائر انهزام الباطل في الغرب، بشائر كثيرة تبعث على الأمل وتبدد ظلام اليأس.

إن مما يبعث على الأمل أن الاستعمار الذي أغلق كثيراً من النوافذ التي تهب منها نسمات الحرية الفكرية على الشعوب، قد حمل عصاه ورحل عن أقطار كثيرة، فأتاح فرصة للأفكار أن تتحرر، وللعقول أن تبحث.

ويبعث على الأمل أن الإلحاد أخذ يتضاءل ويخفي رأسه، ويخفت صوته،

ولم يعد له حجة ولا سلطان، وكلما تقدم العلم ازداد عدد المؤمنين بالله، وتناقص عدد المنكرين.

ويبعث على الأمل أن كثيراً من المفكرين المنصفين أخذوا يشكون من طغيان المادية على الحياة، وطفقوا يبينون مثالب الحضارة المادية، وخطرها على خصائص الإنسان وتهديدها للقيم الأصيلة والمثل العليا في الحياة.

ولابد أن يأتي اليوم الذي يزهق فيه الباطل، وتزول دولة الضلال أمام عسكر الحق الزاحف المنتصر، هذا ما ينبئُ عنه الواقع، وما تحس به القلوب النيرة، وما تقضي به سنن الله في الخلق، وما تنطق به آياته الحكيمة الصادقة: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]. وصدق الله العظيم.

وها حقيقةٌ لابد أن نذكرها:

وهي أن الحق لا ينتصر وحده، ولكن سنة الله أن ينصر الحق، إذا كان له رجال يؤمنون به ويدعون إليه، ويتجردون له ويعيشون من أجله، ويموتون في سبيله. ولهذا قال الله لرسوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنفال].

فإن كان لي من نصيحة أنصحها إليك يا بني فهي أن تعيش جندياً للحق، تحيا له وتموت عليه، تحب فيه وتبغض، وتصل وتقطع، وتسالم وتحارب.

**قال الفتى:**

وهل أجد في الناس من يعينني على ذلك؟

**قال الشيخ:**

إن سنة الله يا بني أن يبقى في الناس من يستمسكون بالحق ويدعون إليه، ولو كثر أهل الباطل، ليكونوا حجة الله على خلقه. وفي القرآن: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ [الأعراف].

وفي الحديث: «لا تزالُ طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمرُ الله وهم كذلك إلى قيام الساعة» رواه مسلم.

ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا تخلو الأرض من قائم لله بالحجة».

ورحم الله شوقي إذ يقول:

إن الـذي خلـق الحقيقـة علقمـاً     لـم يُخْـلِ مـن أهـل الحقيقـة جيـلا

على أن جندي الحق لا يضيره أن يقف في الميدان وحده، يصارع الباطل بعدده وعدته، ويتحدى الضلال بسلطانه وجبروته، فإن عاش، عاش بالحق سعيداً، وإن مات، مات في سبيله شهيداً.

وحسبك مثلاً على ذلك من أُولي العزم من الرسل شيخ المرسلين نوح عليه السلام الذي ظل ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو قومه إلى الله ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وإن لم يزدهم دعاؤه إلا فراراً.

وأبو الأنبياء إبراهيم الذي قال لأبيه وقومه: ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزخرف].

**قال الفتى:**

وما قيمة صيحة حق في صحراء مترامية من الباطل؟ أليست كما قيل: صيحة في واد ونفخة في رماد؟

**قال الشيخ:**

إن صيحة الحق يا بني لا تذهب سدى. إنها تترك أثرها في ضمير الوجود، وإن لم تَسمع لها دوياً، ولم تلمس لها أثراً مباشراً، وهي إن تذهب اليوم مع الريح، فغداً تذهب بالأوتاد، وهي إن ضاعت عند الناس فلن تضيع أبداً عند الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى

ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم].

وهَبْ أن الناس كلهم قد انطمست بصائرهم، وخُتم على سمعهم وأبصارهم، وغشى الباطلُ على قلوبهم، فلم يعودوا يستجيبون لصيحة الحق ولا لدعوة الخير، فلا يَفُتَّن ذلك في عضدك، ولا يُقعدنك عن واجبك. فإنما عليك البلاغ وعلى الله الحساب، عليك الدعوة وعلى الله الهداية، عليك أن تبذر الحَبَّ، وأن ترجو الثمار من الرب.

وفي القصة القصيرة التي ذكرها القرآن عن القرية التي كانت حاضرة البحر، عبرة وعظة ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف]. معنى هذا أنه لا فائدة ترجى من وعظهم وقد أعرضوا وعاندوا وحقت كلمة الله عليهم، فماذا قال أولئك؟ ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف]. لقد عللوا وعظهم لهؤلاء الذين لا خير فيهم بأمرين: الإعذار إلى الله بأداء الواجب، والرجاء في أن يهديهم الله ويهدي بعضهم إلى الحق.

إن الأمل جزء من دين المسلم؛ لأنه ثمرة حُسْنِ الظن بالله والثقة بوعده، واليقين بما عنده.

وهذا شأن الداعين إلى الحق، يحدوهم دائماً الأمل الحلو ويعمر جوانحهم الرجاء الباسم، ولايعرف ظلام اليأس إلى صدورهم سبيلاً: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر].

وكلما أذلَّهم الباطلُ من حولهم ازداد إيمانهم بحاجة الناس إلى النور وكلما أمعن الفساد في الظهور والانتشار امتلؤوا يقيناً بضرورة الإصلاح وكلما زحف تيار الكفر الصريح أو المقنع ازدادوا قدرة وإصراراً على المقاومة. وكلما أطبقت عليهم المحن الداجنة، أيقنوا أن الفرج قريب.

إن أحلك ساعات الليل سواداً هي التي تسبق الفجر، وإن أشد الأيام قسوة

هي التي تسبق تباشير النصر، وما أكثر الأمثلة على ذلك، وما أكثر الأدلة !

إن الحق الذي أكرمنا الله به، فيه وحده فلاحنا وخلاصنا في أُولانا وأُخرانا، وفلاح الإنسانية كلها معنا. وإنما تحتاج الإنسانية إلى أمة ترى فيها الحق نماذج بشرية تمشي على الأرض لا كلمات وشعارات تزحم الكتب، وتتغنى بها الألسنة والأقلام.

يوم ترى الإنسانية الحق ممثلاً في أُمة تعرفه وتحبه وتحرسه وتنشره وتدعو إليه وتضحي في سبيله. يومَها سَتُسَلِّمُ لها الزمام، وتسيرُ خلفها طوعاً أو كرهاً. يومها يهربُ الظلام، وينكمشُ الباطل، ويتراجع الشيطان.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم].

**تمت بحمد الله**